٢ – السلم العالمية حلم الأبد

للأستاذ توحيد السلحدار بك

يقول الدكتور الأهوانى : « الخطوات التى يخطوها العالم فى سبيل التطور والوحدة خطوات سريعة جداً (كذا) ، هى التى تجعلنا نقول بأن السلم قريبة الآن . ونحن نؤيد هذا القول بشواهد فى التاريخ ، معتمدين على النظر إلى تطور الإنسانية خلال العصور الطويلة »

إن مذاهب التاريخ وأنواعه وكتبه كثيرة . فعلى أيها اعتمد الدكتور يا ترى ؟ يحسن ، على كل حال ، تقديم كلمة فى التاريخ بوجه عام ، قبل النظر فى « الشواهد » وفى « تطور الإنسانية » مما اعتمد عليه الدكتور

إن كل قرن يكتب فى التاريخ لإحيائه وتجديده . والتواريخ المكتوبة على أحدث وجهات النظر تعتمد على المنطق والفلسفة كي تبين حقيقةً ذات شأن تؤخذ ، بالنظرة الشاملة ، من مشهد الحوادث الإنسانية . وهذا هو التاريخ السامى إلى المرتبة العلمية . على أن تطبيق هذه الطريقة يعرِّض المؤرخ لتعميمات واهية الأساس ، واستنتاجات فطيرة ، وإطلاق فى الكلام . ولا يقدر سوى القليلين على ترجيح كفة الأمانة ، كل الترجيح ، فى التحاليل والحكم ؛ وترجيح الضمير والعلم على هوى الآراء المجملة ، وجواذب الحاضر السطحية ، والتباس الشهادات الناقص تحقيقها . ومما يجب التنبّه له ، فى هذا الباب ، عادة التوفيق بين الحوادث المنقضية وبين همّ المؤرخ من جهة تأليفه وفنه ، أو بينها وبين أذواق عصر من العصور ووجدانيات أهله ، ومصالحهم أو بعض المصالح الحزبية . والزمان الحاضر عصر تقدم ، لكن يجب الاعتراف بأن الذين بالغوا في الفروض المخاطر بها كثيرون

وهذا ويلز يقول فى مقدمة كتابه : « ليس يمكن أن يوجد سلم ولا نجاح مشتركان بغير أساس مشترك من الفكر التاريخية » ؛ وتاريخه مكتوب فى سبيل هذا الرأى . بيّن فى كتابه مذهب جيبُّون[1] فى تاريخ الرومان ، ثم قال : « حاولنا أن نعرض الحوادث على صورة أخرى » . وقد ذهب الأستاذ جيجُّو[1] ، مترجم الكتاب إلى الفرنسية ، فى مقدمة ترجمته ، إلى أن هذا التاريخ « هو ، قبل كل شيء ، صنيع كاتب وسّع دائرة نظره ، فجعل الأمم والمدنيات فى مكان الأفراد من كتب الخيال : ومن هنا وقعه التمثيلى فى النفس . إن هذا التاريخ — وإن تأسس على أدلة قوية — ليُنشئ بقدر ما يُحدث ... هو قصص يصف حادثة لم تكن منتظرة ، بطلها الإنسان ؛ والذين اعتبروا ، حتى اليوم ، من رجال التاريخ ليسوا فيها سوى المخرجين ؛ وما الإمبراطوريات إلا مناظرها ؟... وسيمة البطولة عند ويلز أن يخدم الإنسان ، ويجعل نفسه منفذ الأقدار الذى يحتم على الإنسانية بالتدريج ، فى جميع المعتركات ، اتحاداً فى الفكر وفى الإرادة » . ولم يوافق على وجهة نظر ويلز فى كل الأحوال مع موافقتهم فى بعضها : جِنْيِبير[2] ، الأستاذ بالسربون ؛ ودِيْرِه[3] ، الأستاذ بجامعة رِنْ Rennes ؛ ودُتَن[4] ، أستاذ الأدب فيها ؛ وبُول[5] ، الأستاذ فى المُزيِم ، أى حديقة النبات بباريس ؛ ودُسُّو[6] ، الأستاذ بمدرسة متحف اللوفر ، وأضرابهم ممن ساعدوا المترجم

طال هذا الاستطراد المتعلق بالتاريخ . لكن عذره أن ملاحظة ما فيه تفيد فى تقدير « شواهد » الدكتور التاريخية ونظره إلى « تطور الإنسانية »

فهو يقول إن الجماعات انتقلت ، بمقتضى الرق والعمران ، من قبائل متناثرة ومدن صغيرة إلى دول وشعوب كبيرة ، « وكلما اتسعت الدولة زالت الفوارق فى اللغة ، والتقاليد ، والعادات ، والفكر ، والدين »

أما التاريخ فيقول إن الدول تتسع ثم تضيق ، كما اتسعت الدولة العثمانية ثم ضاقت تركيا ، من غير أن تزول تلك الفوارق ؛ وكذلك الإمبراطورية النمسوية ، وغيرها . واللغات وفروعها عديدة ، والشعوب المختلفة لا تعرف غير لغاتها ، والراقية تخلّص لغاتها مما يهدد كيانها وإن تعلمت بعض اللغات الأجنبية ؛

(١) Edouard Gibbon المؤرخ الانجليزى المشهور ، صاحب « تاريخ هبوط الامبراطورية الرومانية وسقوطها » .

(١) Edouard Gugot الأستاذ فى السربون

(٢) Guiquebert .

(٣) Déyrez .

(٤) Dottin .

(٥) Boule .

(٦) Dussaud

واليابان التي يعرف بعض أهلها اللغة الإنجليزية ، مثلا ، تحافظ على اليابانية ولا تهمل ثقافتها القومية ، والروسيا اتسعت وليست اللغات العديدة فيها بسبيل الوحدة . ومصر التي اتسعت وضاقت ، وتدانت أرجاؤها ، وكثرت فيها المواصلات والمخالطات ، لما تزل بها الفوارق على امتداد القرون بين التقاليد والعادات ؛ بله ظواهر الأمور في طبقة محصورة من الآخذين عن الفرنسيين أو الإنجليز أو غيرهم ، بل إن ما أخذوا يزيد الفوارق ولا ينتظر أن يعم . وقد تشعبت الأديان الوثنية والكتابية الأصلية ، ولم تتوحد أصولها ولا مذاهبها في دولة ولا أمة ؛ ولم ينس التاريخ ما وقع بين الكاثوليك والبروتستان ؛ والذي أصاب اليهود ، في دولة واسعة كألمانيا قد حدث في هذا الزمان . فالقول بزوال هذه الفوارق كلما اتسعت الدولة يشعر بعجلة في التحقيق ، والاستنتاج ، والتعميم ، وإطلاق الكلام

ويقول الدكتور : ظهر عامل جديد « سيقلب كيان الإنسانية كلها » ، و « هو سرعة المواصلات البرية ، والبحرية والجوية »

ويلز يقول ، في مقدمة كتابه : « أدنت البشر بعضهم من بعض لخيرهم أو لشرهم وسائل مواصلات أسرع » . ويقول في كتابه : « لما كان جيلون ، من نحو قرن ونصف ، يهني الجمعية اللطيفة المهذبة في ذلك العصر بخاتمة طور الثورات السياسية والاجتماعية الكبرى ، كان يهمل أكثر من أمارة تبدو لنا اليوم ، في ضوء الحوادث ، منبئة برجات رهيبة وانفساخات وانفكاكات شديدة[1] ... كانت الإمبراطورية البريطانية ضمان سلامة وأمن للعالم ... إن تقدم الملاحة وبناء السفن ، بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، أمكن من سلام بريطاني مقبول عند الجميع ، إن نمو الملاحة الجوية والمواصلات البرية قد يرد هذا السلام أمراً تقل الرغبة فيه بقدر ما يكون غير ثابت آمن[2] » . ويقول أيضاً : إن نظام الدول العظمى كان بأعلى درجاته « في قريب من الوقت الذي بدأت تظهر فيه القوى الفاكة التي بلغت مبلغاً يجعلنا نتساءل قلقين في الساعة الحاضرة (حول ١٩٣٠) : هل ستجلب خراب عالمنا بأسره ؟ »[3]

ذلك ما يقول واصف « سير الإنسانية العظيم نحو وحدة عالمية » . وبواكير الأحوال تدل على أن انقلاب « كيان الإنسانية » سيكون شراً لها ، لا خيراً ، لأن الغريزة الأساسية الدافعة إلى الكفاح في الحياة والفوارق الطبيعية بين الأفراد والجماعات لم تتغير ولن تتغير

ويقول الدكتور : ستخطو الإنسانية خطوات أخر « يخيل إلينا أنها قريبة الوقوع وهي : وحدة اللغة ، ووحدة التقاليد ، ووحدة الزي ، ووحدة الأساليب في شتى فروع الحياة » . ومن آيات هذا الاتجاه « أن تركيا اصطنعت الكتابة بالحروف اللاتينية ... وفي مصر من يريد مثل ذلك » ؛ ومنها « محاولة اختراع لغة عالمية سموها ... اسبرانتو »

وهذه « وحدات » كثيرة أو حجج كأنها واردة لمجرد الاحتجاج ، إذ ليس يخفى على الدكتور أن سكان الأرض ١٨٢١ مليون ، هم ستة أجناس أصلية فروعها أكثر من خمسين ؛ وأن لغاتهم ومشتقاتها ألف على التقريب ، أصولها الأساسية أحد عشر ، ويتفاهم بها الهمجي والمثقف ومن بينهما في دركات ودرجات لا تحصى ؛ وأن اللغة صور لما في النفس من وجدانيات وأفكار . فكيف تنشأ وحدة النفس والمدركات والمدركات فيها حتى تتحقق وحدة اللغة في جميع العالمين ، مع ما بينهم من تفاوت طبيعي من الجهتين الحسية والمعنوية ، ومن اختلاف الموطن والمعيشة والموروث المستقر في أعماق الجسم والنفس ، والمكتسب المتنوع تنوع عوامل التطور الباطنية والخارجية . فما « وحدة الأساليب في شتى فروع الحياة » إلا شيء خيالي . وإن جاز أن يتمنى هذه الوحدة وأمثالها آخذ بالظواهر الجزئية القريبة ، في عجلة ومبالغة ، فالمنهج إلى الحقائق البشرية هو النظر في الأسباب القطرية والعلل الجوهرية . أما الإسبرانتو فلغة اصطلاحية وضعها زامنهوف Zamenhof ، الطبيب ، اللغوي ، الروسي ، سنة ١٨٨٧ ، تسهيلاً للعلاقات بين الأمم ؛ والمقاطع الأصلية في هذه اللغة مأخوذة من أكثر المقاطع تداولاً في أكثر اللغات شيوعاً ؛ وهي تكتب طبقاً للصوت في النطق ؛ ونحوها بسيط محصور في ست عشرة قاعدة ؛ ومع ذلك ، فكم من الخلق ومن القائمين بشؤون الأمم استعملوا هذه اللغة بل عرفوها في السبع والخمسين السنة الماضية ؟ كلا ، إن حجة الإسبرانتو هي حجة على رأي المحتج بها وليست له . وأما الترك الجادون في إحياء قوميتهم ، بإحياء تاريخهم ولغتهم ، فلم يصطنعوا الكتابة بالحروف اللاتينية ليهملوا التركية التي يتوخون تصفيتها

(١) الصفحة ٤٢٢ من كتابه .
(٢) الصفحة ٥٠٦ منه .
(٣) الصفحة ٤١٦ منه .

من الدخيل فيها . ومَن أراد من المصريين استعمال هذه الحروف لم يقصد سوى المحافظة على اللغة العربية الصحيحة ، أصاب أو لم يصب في اقتراحه . أما وحدة الزي ، على فرض أنها قد تتحقق ، فإنها تظل شيئاً سطحياً ليس يقوى على تغيير ما هو خاضع للسنن الطبيعية في القلوب والعقول . ولو تحققت هذه الوحدات جميعاً لأصبح الناس كالآلات التي تخرج من المصنع على غرار واحد ، ولا بد من استحالة الفطرة البشرية قبل أن تحصل هذه الوحدة

تبين ، مما تقدم من البحث ، ضعف «القوى» و «الأبلغ» من أدلة الدكتور على أن السلام « قريب الأمد » . وبقى أنه خرج منها بقوله : « من العوامل القوية في منع الحروب وتحقيق السلام — بعد توحيد العالم على النحو الذي وصفنا وقوعه في المستقبل » :

أولاً : إن « العالم يسير الآن نحو خطة جديدة يرى بها إلى نزع السلاح »

لكن كليمنصو ، وهو من علمتَ ، يعترض إذ يقول : « الأخيرَ هو أن تنظر ملهاة « نزع الأسلحة » الزائف في نفس الساعة التي تتسع فيها صناعة هذه الأسلحة اتساعاً جنونياً »[١]

وقال لوى ده لنيه[٢] ، عضو مجمع العلوم الفرنسي ، بشأن ما تلا الحرب الماضية من المؤتمرات : « منذ مدة ، راجت مؤقتاً مؤتمرات السلام والأحلاف المقدسة . وهذه حال دورية تمتد عادة بقدر بقاء الذكرى الأليمة من حرب أخيرة : افرضه جيلاً . وبما أن من مميزات زماننا عقلية فوّرة تتخيل أنها اكتشفت العالم ، يميل الناس اليوم بوجه عام إلى التسليم بأن هذه الحال نهائية . أرجو أن يشاء الله ! »[٣] وقد صدق : إذ نشبت الحرب الحاضرة ، وهي أشد إيلاماً من الماضية ، ولذا بدأ الناس من الآن ينتظرون نزع السلاح ويسلّون بإمكان سلم دائمة

ثانياً : إن العالم الآن « يجرى في التعليم على بث روح السلم واعتناق فلسفة السلام »

ثالثاً : إن الواقع هو « انتشار التعليم بين سواد الناس ، وما يتبع ذلك من رقي عقلي ، ونزوع إلى تغليب الحكمة على الشهوة ، وحل المشكلات بالعقل لا بالقوة . وكلما ارتفعت عقليات الأفراد صعب قيادهم قياداً أعمى لمصلحة ذوى المطامع »

فهل يجب إذن أن نعتقد أن أفراد الشعب الألماني ، مثلاً ، لم ينتشر التعليم فيهم ، وأن عقليتهم منحطة ، ولذا أثر أصحاب المطامع في عقولهم ونفوسهم حتى انقادوا إلى هذه الحرب انقياداً أعمى ؟ أو أن هؤلاء الأفراد وزعماءهم سوف يهذبون على « فلسفة السلام » حتى ينسوا أحقادهم القديمة والحديثة على أعدائهم ، ويتغلبوا على غرائزهم وشهواتهم فلا يوجد بعد ذلك فيهم أحد يحاول دفعهم إلى حرب ، ولا ينقادون انقياداً أعمى ولا بصيراً ؟ ومن الذي سيتولى تهذيبهم بهذه الفلسفة ؟ هم ، من تلقاء أنفسهم ، أم غيرهم ؟ وهل أفلحت الدول التي اقتسمت بولونيا منذ أواخر القرن الثامن عشر في عقليتها ونفسيتها ونزعتها الوطنية إلى الاستقلال ، بالثورة وغيرها من الوسائل ؟ وهل تصدق جميع الدول في تغذية شعوبها وتهذيبها بفلسفة السلام النظرية ؟ وأيها يبدأ مخاطراً بهذا التهذيب ؟ وما يكون الحامل على هذه المخاطرة ؟ أهو خيفة رزايا الحرب الحديثة ، أم مثل أعلى مهلك ، أم مقتضيات الاقتصاد وهو الذي يسوق إلى الحرب ؟ هذه أسئلة لا نهاية لأمثالها . وقد يغنى عن أجوبتها استشهاد طائفة من العلماء وكبار الكتاب :

يقول له دنتيك : « يبدو لى أن الحروب بين الأمم لا مناص منها ... وحين لا توجد حرب أهلية يتباغض المواطنون ويتحاسدون . وهذه الحرب الأهلية الكامنة أليست أمقت الحروب جميعاً ؟ وإن تحقق حلم أنصار السلام كان ذلك نهاية الإنسانية في أجل قريب ... إن حلمهم يعبر عنه بجمل كريمة جداً ومؤثرة جداً : يقولون إن الإنسان المتخلص من هموم الحرب يتمم صنيع العلم العظيم ... لا أحد يحب العلم أكثر من حبى إياه ، لكن لا أحد أيضاً يلاحظ — بأكثر وضوح من ملاحظتى — عجز العلم عن تغيير الإنسان[١] »

ويقول ويلز : « كل ما يفعل الأفراد والأمم هو نتيجة من البواعث الغريزية المؤثرة تأثيراً عكسيًّا في الأفكار التي نفثتها المحادثة والكتب والصحف ودروس المعلمين في عقل الشعوب . والفرق بين إنسان اليوم وإنسان كرمنيون[٢] فرق ضعيف

(١) بالصفحة ٤٤٧ في الجزء الثاني من كتابه (في مساء الفكر) .

(٢) Louis de Launey .

(١) الصفحة ٧٠ من كتابه : « نهاية عالم والعالم الجديد » المطبوع في كندا .

La Fin d' un Monade elle Monde Nouveau. — Editiod Zallandier.

(١) الصفحتان ٢٩٢ و ٢٩٣ من كتابه « الأنانية هي الأس الوحيد لكل جمعية » .

(٢) (Cro — Magnon) : غار قرب محطة له إيز (Les Eyzies) على الزير (Vézère) ، ساعدة نهر الدردني (Dordogne) في جنوب فرنسا الغربي وجدوا في هذا الغار جمجمة إنسان من العهد السابق للتاريخ

كل الضعف : إن الفرق الأساسي هو في سمته ونوع الحصيلة العقلية التي تكونت على مر خمسمائة وستمائة القرن الفاصلة بين الأول والثاني[1] »

ويقول كليمنصو : « إن الانفعال هو الذي يدفعنا إلى الفعل ، وليس القياس (يعني ليس العقل والفكر) ... أليس الذي يفضي بنا إلى أعمال الحياة هو تتابع حركات انفعالية ، تحدث عن صواب أو خطأ ، ثم يتقدم العقل بعد ذلك لتبرير هذه الأعمال ؟ [2] »

ويقول جستاف له بون ، أو ماكس نُردو : « العقل ينشئ العلم ، والوجدانيات تسير بالتاريخ[3] » . ويقول له دنتك أيضاً : « أن توجد هو أن تكافح ، وأن تحيا هو أن تغلب[4] » و « الأنانية هي الأس الوحيد لكل جمعية[5] »

رابعاً : « إن تحقيق المساواة لجميع سكان العالم في الحياة المادية ، وهو ما يقضي به التطور الذي نشهد آثاره ، كفيل بمنع الحرب وإقرار السلام »

والثابت أن المساواة ، مادية كانت أو معنوية ، مستحيلة في البشر لاختلافهم وتفاوتهم تفاوتاً طبيعياً ، جسمياً ونفسياً على ما ذكر آنفاً ، فليست إلا خيالاً وخرافة . ومفهوم المساواة التي أعلنتها الثورة الفرنسية — مثلاً — غير معناها في العقول العامية ومن يظن أن المساواة المزعومة التي تشمل البشر سوف توجد يكون واهماً . وأكبر منه وهماً من يظن أنها ستعم الأرض قاطبة في مستقبل قريب

يقول دُه لُنيّ أيضاً : « إن النظام المنعوت بالرأسمالية أخذ في التهدم لينتهي ، من طريق الدولة الاشتراكية إلى الشيوعية والعبودية ... وتلك قفزة مخيفة إلى المجهول[6] »

وأخيراً ، يقول كليمنصو أيضاً : « إن جداً أعمى يطلق المستقبل ، ولا يستطيع العقل التجريبي أن يعد بشيء وراء الرجاء وهذه خسارة يتحملها[1] » و « نحن — على الخير والشر — تحت سيطرة سنن لا تلين . فهل من المؤكد أن عندنا ما نتعاتب فيه ؟ ألا يكون أعلى المقدور لنا أن نقتتل ونتحاب في آن ؟ إننا نخفف من فظاعة الكفاح بفترات احترام ، حتى يتوادّ بين الأسر الحية ، أليس في ذلك مشابهة قاسية لما نسميه بسلامة طوية عند بني جنسنا سلام الإنسانية ؟ بلى . إن هذا السلام الذي في وسعنا أن نهديه إليكم نرغب فيه ونعظ به الناس وصداه يرن في معابدنا ، فانظروا ما صنعنا به ؛ إن الحرب لا تزال قريبة جداً من حالنا الطبيعية ، والسلام لا يزال في أكثر الأحيان نظاماً للقسرة ؛ وأنتم أنفسكم ، يا مَن تشكون بحق ، لا يُبقي بعضكم على بعض ؛ وارتفاع طاقتنا يحملنا جميعاً على حال — سارة أو سيئة — نبيد فيها كل ما يقع تحت سلطاننا[2] »

مَن يدري درس أو لم يدرس علمي النفس والاجتماع كل أولئك الشهود الذين ورد شيء من كلامهم في هذا المقال . لكن إذا كان لعرفانهم قيمة ، فلا غرو أن يقول قائل : إن منع الحرب حلم الأبد وبوده لو يكون قريب الأمد . والحق أن السلم العالمية أمنية مثالية ، حتى إن فُرض جدلاً أنها قد تتحقق في زمان قصيّ من الأبدية ؛ فليس اليوم بد من اعتبارها حلم الأبد .

محمد توحيد السلحدار

(١) الصفحة ٥٣٢ من كتابه « خلاصة التاريخ العام » .
(٢) الصفحة ٤٦٦ في الجزء الثاني من كتابه « في مساء الفكر » .
(٣) Laraison crée lascieuce, les sentiuneus wénent l' bistoire
(٤) Etre c'est lutter, vivrecést vaincre وهي كلمة دالة تحت عنوان كتابه المسمى « الكفاح العام » .
(٥) L' Egoiswe seule base de toute Société ، والجملة عنوان كتاب له .
(٦) في الصفحة الثامنة من كتابه المذكور في هامش سابق .

(١) الصفحة ٤١٦ في الجزء من كتابه المشار إليه آنفاً .
(٢) الصفحة ٢١٣ في الجزء الثاني من الكتاب عينه

ظهر حديثاً
أساطير الحب والجمال عند الإغريق
بقلم الأستاذ
دريني خشبة
يطلب من مجلة الرسالة